امره كما يفعل ملوك الارض ولكن كيف يتمّ ذلك لهُ عزَّ وجلَّ إلَّم يكن لديهِ وسيلةٌ لتقليد سلطتهِ ارلياءهُ المصطفين

وقد اومأنا فيما سبق (ص ١٢٠) الى كيفية تأثير الله في ذهن النبي . وهَبْنا لا نعلم شيئاً من تلك الكيفية فليس جهلنا هذا دليلاً على عدم وجود هذا التأثير واستحالته . افنحسب خلقاً محالاً نباتَ الزرع ونموَّه لانَّا لا ندري كيف تموت الحبَّة في الارض ثمَّ تحيا وتحيي ما انشقَّت عنهُ

انت لا تعرف اباك ولم تدرِ من انت ولا كيف الوصولْ
ابن منك الروحُ في حومرها هل تراها ام ترى كيف تجولْ
انت أكلُ الخبز لا تعرفهُ كيف يجري فيك ام كيف يزولْ

أفتكون انت وما فيكَ من الامور المحالة لانك لا تدري كيف كُوِّنت ولا كيف تنمو ؟ (لها بقيَّة)

الطائفة المارونيَّة والرهبانيَّة اليسوعيَّة

في القرنين السادس عشر والسابع عشر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

زيارة الاب يوحنا اليانو الاولى الى الموارنة

فاستعدَّ الاب اليانو لتلك المهمَّة بما استطاع من النشاط . وكانت سفارتهُ السابقة الى بطريرك الاقباط قد حنَّكتهُ واوقفتهُ على احوال النصارى الشرقيين . وكان بعد رجوعهِ من تلك الرحلة لم يزل يكاتب معارفهُ في الشرق ويتردَّد على من يسكن رومية او يزورها من اهل الشرق فيعدُّونهُ كاحد مواطنيهم ويلتجئون اليهِ في حاجاتهم

وكان ايضاً قد زاد تضلُّعهُ باللغة العربيَّة اذ كان رؤساء الرهبانيَّة اليسوعيَّة العامُّون كالاب جاك لَيْنس خلف القديس اغناطيوس (١٥٥٦—١٥٦٦) ثمَّ القديس

فرنسيس دي بورجيا (١٥٦٦–١٥٧٢) ثم إقرّد مركوريان (١٥٧٣ — ١٥٨٠) انتدبوهُ الى تدريس العبرانيّة والعربيّة في المدرسة الرومانيّة اليسوعيّة التي كان انشأها القديس اغناطيوس دي لويلا سنة ١٥٥١ فاصبحت بعد عشر سنوات سيّدة مدارس رومية يناهز عدد تلامذتها الألف عدًّا كانوا يقصدونها من جميع ممالك اوربّة وكان يعلّم فيها وقتئذٍ اماثل الرجال كبلّرمينوس الذائع الشهرة وملدونات اللّامة المفسّر للكتب المقدّسة والكردينال طوليت اللاهوتي وبرنيان البيانيّ وكلافيوس الفلكي فبقي الاب اليانو بينهم معلّماً للّغات الشرقيّة يكاد يجاريهم شهرةً وعلماً من السنة ١٥٦٥ الى ١٥٧٧

ومن آثاره في تلك الحقبة بعض تآليف عرّبها او نشرها لافادة نصارى الشرق يمدُّونها اليوم من اعزّ المآثر الطّبعيّة اذ لم يسبقها في تاريخ الطباعة العربيّة سوى كتابين كتاب « صلاة السواعي » المطبوع في فانو من اعمال ايطالية سنة ١٥١٤ بامر البابا لاون العاشر وكتاب الاصول العربيّة في اللغة اللاتينيّة لغليوم پوستل في باريس سنة ١٥٣٨. فلمّا أُنشئت المدرسة الرومانيّة وترتّب فيها درس اللغة العربيّة سعى اليسوعيّون في انشاء مطبعة صغيرة لنشر بعض نصوص عربيّة استخرجها او عُني بطبعها الاب يوحنّا اليانو. اوّلها « اعتقاد الامانة الارثذكسيّة » كما تعلّمها كنيسة رومية طُبع بامر قداسة البابا بيوس الخامس سنة ١٥٦٦ (١ والكتاب على قطع الثمن في ٣٣ صفحة وفي كل صفحة ١٨ سطرًا. والثاني كتاب لهداية المبتدئين طُبع بلا تاريخ في المطبعة الرومانيّة بالحرف ذاته هذا عنوانهُ « هذا مصالحت (هذه مصاحبة) روحانيّة بين العالمين واسم الواحد منهما شيخ سينان (سنان) واسم الآخر احمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة ». نافعةً لكل مسلم ومسلمةً وهو كتاب منهُ في المكاتب الاوربيّة عدّة نسخ مخطوطة تاريخ تأليفهِ سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) والمرجّح انّ الاب اليانو كان وجد هذا الكتاب في رحلته الى مصر فجاء

---

١) والعنوان هناك بالعربيّة واللاتينيّة. وهذا النصّ اللاتيني كما ورد في المكتبة العربية لشنورر: Fidei Orthodoxæ brevis et explicata confessio quam Sacrosancta et Romana Ecclesia docet . . . *Romæ, jussu Sanctissimi D. N. Pii V in Collegio Societatis Jesu, anno* MDLXVI (Schnurrer: *Bibl. Arbica*. p. 236)

صورة دير قنوبين

مقام بطاركة انطاكية الموارنة قديماً

به الى رومية ونشره . وعرَّب ايضاً قوانين المجمع التريدنتيني بعد تعريبها . كما انهُ نقل الى اللاتينيَّة الثانين قانوناً عربياً الملحقة بقوانين المجمع النيقوي وكان استنسخها في مصر اذ رأى الاقباط يستندون اليها ويعدُّونها كقوانين شرعيَّة ثابتة . فكان الاب اليانو اوَّل من عرَّفها علماء اوروبَّة فجرت بسببها ابحاث واسعة لتأييد صحَّتها او نفيها وكان استعان بنقل هذه القوانين باسقف الشام الماروني يوحنا البسليقوتي الذي كان قدم روميـة سنة ١٥٧٧ مع الخوري اقليميس الاهدني ليطلبا من الكرسي الرسولي درع الرئاسة للبطريرك ميخائيل الرزي

فكانت هذه الاشغال قد اهَّلت الاب يوحنَّا للاختلاط بالشرقيين وللوقوف على حقيقة امورهم . فلمَّا بلغهُ امر الكرسيّ الرسولي بان يتفقَّد شؤون الموارنة في لبنان قبل ذلك بكل خضوع واستصحب التعليمات التي اعطاها الكردينالُ كرافَّا حامي الموارنة لهُ ولرفيقـه الاب توما راجيو (T. Reggio) (١ باسم الحبر الاعظم ليُحسنا التصرُّف في مهمَّتهما وقد فصَّل الكردينال تلك التعليمات في ٢٣ بنداً تقدَّم الى القاصدَين بان يجريا عليها ويتحقَّقاها بالعيان ويفيدا عنهـا الكرسيّ الرسولي لتكون رومية على العلم التام بخصوص معتقدات الموارنة وطقوسهم في تقدمة الاسرار وتوزيعها وآدابهم وكتبهم الدينيَّة لئلَّا يكون اندسَّ اليها شيءٌ من الاضاليل جهلاً او بمكر بعض المبتدعين (٢ . وهذه التعليمات تاريخهـا ٣ آذار سنة ١٥٧٨ وهي في اللغة الايطاليَّة نشرها المرحوم الاب انطون رباط عن نسخة مصونة في سجلَّات الرهبانية اليسوعية

وكان سفر الابوين يوحنَّا اليانو وتوما راجيو من رومية في اواخر آذار من السنة ١٥٧٨ مع اخ مساعد يُدعى ماريو اماتو (Mario Amato) وكانوا في رفقة الاسقف

---

١) لا يوحنَّا بروتو كما مرَّ في العدد السابق (ص ١٢٢) غلطاً . وقد ورد اسمهُ مصحَّفاً في تاريخ الطائفة المارونيَّة (ص ٤٤٣) حيث دُعي توما وادبوس

٢) قال العلَّامة الدويهي (ص٤٤٣ من تاريخ الطائفة المارونيَّة) عن القاصدين الرسولين : « وامرهما (البابا) بفحص ديانة الموارنة والبحث عن صدق طاعتهم وكتبهم ومشاهدة رتبهم وعوائدهم وكهنوتهم وعبادتهم وكان الاعتماد على الفتى جوان باطيشتا لانهُ كان رجلاً ذا مكارم وفضل وحكمة خبيراً بالعلوم الالهيَّة والطبيعيَّة ماهراً في اللغة الروميَّة واليونانيَّة عارفاً بالعربيَّة والكرشونيَّة »

جرجس والخوري اقليميس المذكورين اللذين اشترطوا عليهما بعض الشروط لقبول درع الرئاسة وانما نالا من فضل رومية هدايا ثمينة للسيّد البطريرك مع رسالة من قداسة البابا لنبطته. وركبوا البحر في البندقيّة على مركب شراعي للبنادقة في تاريخ ١٦ نيسان وكان سفرهم ميموناً فقطعوا البحر الادرياتيك ووصلوا في غرّة شهر ايار الى جزيرة كورفو حيث استقامت السفينة عشرين يوماً فاقلعت منها في ٢٢ أيار الى زانتي احدى جزائر اليونان ومنها سارت الى قبرس

وكانت قبرس لم تزل مثخنة بجراح الفتح التركي فانّ السلطان سليم الثاني كان عهد الى مصطفى باشا بحصارها وضربها فظفر بها واخذها من اهل البندقيّة ورغماً عن وعده بالامان قتل من اهلها في المذبحة نحو خمسين الفاً بينهم نحو ١٨,٠٠٠ ماروني على ما روى الدويهي في تاريخه (ص ١٧٣) ونحو ٣٠,٠٠٠ على رواية البطريرك بولس مسعد في الدرّ المنظوم (ص ١٦٥)

فبعد ساعات قليلة ارست السفينة عند قبرس ثم توجّهت الى طرابلس في اواسط حزيران ١٥٧٨. وكانت طرابلس اذ ذاك الثغر البحري المهمّ في سواحل الشام عندهُ كانت ترسو السفن الاوربيّة القادمة من البندقيّة ومن مرسيلية وكان يقيم فيها قنصلان من دولتي فرنسة والبنادقة فتحفّى كلاهما بالمرسلين اذ وقفا على رسائل خاصّة توصي بهم فاستراح الاب الياز ورفيقاهُ مدّةً هناك

وفي تلك الاثناء كان السيّد جرجس البليقوني والخوري اقليميس الاهدني صعدا الى قنوبين حيث كان المقام البطريركي واخبرا عمدة الطائفة بما لقياهُ من الحفاوة لدى الكرسي الرسولي وسألما السيد البطريرك الهدايا الثمينة التي تكرّم بها قداستهُ والكردينال كرافّا على الطائفة فوقع ذلك في قلوب الجميع احسن وقع فاستعدّوا لاستقبال الوفد البابويّ بما امكنهم من العزّ والاكرام

*

ويحسن بنا ان نذكر بالايجاز شيئاً عن حالة القطر السوري عند وصول الآباء اليسوعيين اليهِ اوّل مرّة. كانت سوريّة في بدء القرن السادس عشر داخلة في ضمن الدولة المصريّة فيحكم عليها الحكّام باسم ممالك مصر. لكن السلطان سليماً الاوّل ملك الاتراك بعد انتصارهِ من اسماعيل شاه ملك العجم زحف على بلاد الشام فاستولى

عليها إثر كسرهِ للجيوش المصريَّة في مرج دابق شمالي حلب سنة ١٥١٦. ثمَّ اخذ السلطان بتنظيم سوريَّة فجعلها اقساماً او ولايات كان يعيّن عُمَّالها ليسوسوا اهلها. وتبع خلفاؤهُ خطَّتهُ الى عهدنا. على انَّ بُعد ولايات سوريَّة من الحاضرة كان يثير في قلوب الولاة روح الاستبداد فكانوا يتصرَّفون بالرعاة تصرُّف السيِّد بالعبد وربَّما حارب بعضهم بعضاً فجعلوا بلاد الشام دار حرب وقتال

وقد شعر لبنان بهذه الفوضى وقاسى اهلهُ شدائد لا يزالون يذكرونها بالأسف والكآبة. لكنَّ الجبل لم يخضع رأساً لولاة الباب العالي وانَّما كان يحكم عليهِ امراء مسلمون او دروز فيختلفون نوعاً على عاتق اهلهِ غير السلطة المطلقة. فكان الحكم في جنوبيهِ للدروز من بيت معن اذ نصب السلطان سليم على جنوبي لبنان الامير فخر الدين الذي كان انجدهُ في حربهِ لدولة المماليك المصريين فحكم من السنة ١٥١٦ الى ١٥٤٤ حكماً عادلاً فاحبَّهُ اللبنانيُّون وجرى على خطَّتهِ ابنهُ الامير قرقماز (١٥٤٤—١٥٨٤) وحفيدهُ فخر الدين الثاني المعروف بالكبير (١٥٨٤—١٦٣٥). وفي عهد هذين الاخيرين قدم اليسوعيُّون الاوَّلون الى لبنان كقصَّاد الخير الاعظم. وكان تحت سيطرة بني معن امراء غيرهم كبني تنوخ الذين حكموا زمناً طويلاً معاملة الشوف وجهات وادي التيم وكان نجمهم قد كاد يأفل وكبني شهاب الذين خلفوا بني معن فضبطوا بعدهم ازمَّة الامر

اما شمالي لبنان من حدود نهر الكلب الى جهات حمص وحماة فكان الحكم فيهِ لبني عسَّاف من عنصر التركمان بسطوا عليهِ سيطرتهم الى السنة ١٥٩٠ التي فيها قُتل اميرهم الاكبر محمَّد عسَّاف بكيدة يوسف باشا سيفا الذي عضدتهُ الدولة فصار التدبير اليهِ والى ذريَّتهِ من بني سيفا الاكراد واستولوا على المقاطعات التي كانت لبني عسَّاف من نهر الكلب الى عرقا وجعلوا مركز ولايتهم في غزير

وكان معظم الطائفة المارونيَّة في ذاك القسم الشمالي من لبنان يقطنون سواحلهُ من جونية الى شمالي طرابلس ومنعطفاتهِ الشرقيَّة واواسطهُ الى مشارفهِ لاسيما مقاطعات الزاوية والجبَّة والضنيَّة ونواحي عكَّار ويجمل عددهم كتبةُ ذاك الجيل اقلّ من مائة الف وكان لهم مقدَّمون من دينهم يحكمون عليهم باسم الدولة ويجبون الجبايات المفروضة عليهم كرعاياها

ومن اخذوا يصيبون بعض الشهرة في ذلك العهد مشايخ بيت حُبَيش وبيت الخازن يُعزى اصل الاولين الى حُبيش بن موسى وسيأتي ذكر ابنه ابي منصور يوسف في اخبار القدّاد اليسوعيين. ويُنسب الآخرون الى الشدياق سركيس الخازن الذي توفي سنة ١٥٧٠ قبل مجيء اليسوعيين بثماني سنوات ولعلّهُ اوّل من سكن كسروان من النصارى انتقل الى تلك المقاطعة واثقاً بالعدل الذي كان نشرهُ الامير منصور العسّافي

امّا بطريرك الطائفة المارونيّة الانطاكي فكان مركزهُ في دير سيّدة قنّوبين شرقيّ طرابلس في وادٍ عميق بين جبال عالية صعبة المرتقى يُعرف بوادي قاديشا. والدير في اعماقهِ بين الصخور والاغوار كان قسمٌ منهُ منقورًا في الصخر الاصمّ يرقون عهدهُ الى اوائل القرن الخامس للمسيح اذ تنسّك هناك قوم من الحبساء (١ وكنيستهُ على اسم السيّدة قديمة العهد وهي على شبه مغارة كلّها منقورة في الصخر. وهناك قبور بعض بطاركة الطائفة. وكان اوّل من سكن هذا الدير البطريرك يوحنّا الجاجي انتقل اليهِ من دير ميفوق فاحتلّهُ الى وفاتهِ (+١٤٤٥) وسكنهُ البطاركة من بعدهِ نيفاً ومائتي سنة

امّا البطريرك الذي كان جالساً وقتئذٍ على الكرسيّ الماروني الانطاكي فكان اسمهُ ميخائيل الرزّي وكان قبل ارتقائهِ حبيساً فلمّا مات البطريرك موسى العكّاري (١٥٢٤ — ١٥٦٧) عُهدت اليهِ رئاسة طائفته واليهِ اوفد الكرسي الرسولي الابوَين يوحنّا اليانو وتوما راجيو

فبعد ان قضى المرسلان أيّاماً قليلة في طرابلس واستطاعا احوال البلاد لدى القنصلَين تأهّبا لمواجهة السيّد البطريرك فصعدا الى قنّوبين. وقد اخبر الاب اليانو في رسائلهِ الى الكردينال كرافّا والى رؤسائهِ انّ البطريرك ميخائيل لمّا بلغهُ خبر مجيء المرسلين خرج مع اكليروس طائفتهِ وجمهور الشعب الى ملاقاتهما فرحّب بهما وقدّم لهُ الابوان آيات الاكرام والتجلّة فشمل الفرح قلوب كل الحضور فكان ذلك اليوم كعيد بهيج توثّقت فيهِ روابط الحبّ بين الكنيسة الرومانيّة وبين بني مارون

١) راجع ما كتبهُ حضرة الاب ه. لامنس عن هذا الدير واصلهِ في كتاب تسريح الابصار (ج ١ ص ١١١)

ولما جمعهم النادي البطريركي جعل البطريرك ميخائيل يشكر الحبر الاعظم على انعطافه الابوي نحو الموارنة ويثني على قداسته وعلى الكردينال كرافّا مطرناً ما وهباهُ من الالطاف والهدايا الثمينة التي اتى بها المطران جرجس

ثمّ تقدّم الاب اليانو ووضع بين يدي السيد البطريرك البراءة التي وجّهها اليه قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر فاخذها وجعلها على رأسه إجلالاً والحّ على الاب ان يعرّبها لهُ ليفهم مضمونها وأبدى اسفهُ على عدم وجود تراجمة يمكنهم ان يوقفوهُ على محتويات البراءات المرسلة اليه . فاجاب الاب بوحنّا من وقته الى طلبة السيد البطريرك وفسّر لهُ البراءات الرسوليّة التي اتى بها المطران جرجس ورفيقهُ الخوري اقليميس وهي التي اثبتها القس طوبيّا العنيسي في مجموعة البولّات المارونيّة (Bullarium Maronitarum. p. 70-72) وتاريخها ١٧ آذار من السنة ١٥٧٧ اعني قبل تعيين الابوين اليسوعيين لسفارتهما ببضعة اشهر

وفي هذه البراءة يشكر الحبر الاعظم غبطة البطريرك على ما افادهُ عن ايمان الموارنة وتشبثهم بالكرسي الرسولي في كتابه المرسل على يد المطران جرجس والخوري اقليميس ويؤكد لهُ انهُ يجعل الطائفة المارونيّة في حمى الكنيسة الرومانية والقديسين الرسولين بطرس وبولس ثمّ يحرّض السيد البطريرك على القيام بالاوامر التي ارسلها الاحبار الرومانيّون اينوكنت الثالث واوجانيوس الرابع ولاون العاشر الى اسلافه ولاسيما بخصوص صلاة التقديس المثلّث (Trisagion) وتكريس الميرون ورتبة سرّ التثبيت ومناولة الاطفال قبل بلوغهم وشدهم والزواج بين الاقارب . فبخصوص التقديس المثلّث يحتم الحبر الاعظم ان يُحذف من آخر هذه الصلاة ذكر الصّلب كما كان يفعل بطرس القصّار لئلّا يُظنّ انّ الصّلب وقع على الجوهر الالهي المثلث الاقانيم . وبخصوص تكريس الميرون يريد الحبر الاعظم كما امر خلفاؤهُ سابقاً ان يُصطنع الميرون من الزيت والبلسم فقط ولا يخاطوها بموادّ اخرى كما جرت العادة (١ وكذلك سرّ التثبيت يحتم الحبر الاعظم بان يمنحهُ الاساقفة وحدهم

١) قد علّق المرحوم رشيد الشرتوني حاشيةً على كتاب مسلة بطاركة الطائفة المارونيّة للدوجي الذي نشرهُ في اعداد السنة الاولى من المشرق ثم طبعهُ على حدة (ص ١٤) يؤخذ منها سبب تأخر الموارنة عن الاذعان لامر البابوات بهذا الصدد

ويُفوّز عن ميرون سرّ العماد . اما الزواج فيعيّن البابا درجات القرابة التي لا يجوز فيها الاقتران بين الزوجين

ثمّ قدّم الاب يوحنّا اليانو لغبطة البطريرك رسالتين اخريين الواحدة من يد قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر تاريخها ١٩ شباط ١٥٧٨ والاخرى من الكردينال كرافّا . ففي الاولى (١ يذكر الحبر الاعظم رسالته السابق ذكرها ويثبتها ثمّ يُعلم السيّد البطريرك بانّهُ يوفد الابوين يوحنّا اليانو وتوما راجيو ليبلّغا غبطتهُ نيّات الحبر الروماني ويوصيهِ بهما ويثني على فضلهما . اما رسالة الكردينال (٢ فكانت تتضمّن عبارات الولاء والوداد لغبطته ويبيّن لهُ سبب تأخّر ارسال درع الرئاسة على يد رئيس الاساقفة المقدسة بسبب ما جرى من الحروب ثم يحضّ غبطتهُ على ان يرسل الى الحبر الاعظم كتاباً جديداً يوقعهُ الاساقفة ووجوه الطائفة وينفذهُ اليهِ هو الكردينال فيعرضهُ على قداستهِ فيصير تثبيت البطريرك قانونيًّا . وممّا قالهُ الكردينال كرافّا في تلك الرسالة انّ البابا يرغب بان يرسل البطريرك الى رومية ستّة اولاد من الموارنة ليتعلّموا هناك ثم يعودوا الى وطنهم وكذلك يشكر غبطتهُ على اهدائهِ للحبر الاعظم اخشاب الارز اللبناني التي سُرّ بها سروراً عظيماً

وفي هذا الكتاب نفسهِ يشير الكردينال الى بعض رهبان واساقفة الطائفة الذين كان السيّد البطريرك تشكّى الى الكرسي الرسولي من سوء تصرّفهم وتستيفهم غير القانوني فيقول لغبطتهِ بانّهُ يجب ضربهم بالحرم ان لم يرعووا ويتوبوا (٣

فسُرّ البطريرك من الوقوف على مضامين تلك الرسالات ولاسيما البراءة البابويّة فصرخ عند سماعها : « ليحيَ الحبر الاعظم الذي يخال لي اني اراهُ واسمع صوتهُ من خلال هذه البراءة » ثمّ صرّح برغبتهِ في الاذعان الى كافّة اوامر الكرسيّ الرسولي

---

١) تجد هذه الرسالة في مجموع البرلّات المارونيّة (Anaissi, BM, 73-74) وقد تصحّف هناك اسم الاب راجيو فدعاهُ (Thomam Beguim)

٢) وهي موجودة بين سجلّات الرهبانية اليسوعيّة في رومية

٣) تجد تفاصيل اخبار هؤلاء العُصاة في تاريخ الطائفة للدويهي (ص ١٧٥)

وأبدى للابوين كلّ شارات الاكرام ورحّب خصوصاً بالاب اليانو لمعرفته باللغة العربية تماماً ولقراءته الكتابة الكرشونية وفهمه للسريانية (١)

وما لبث القاصدان ان تفرّغا لما كان عهد اليهما الاب الاقدس اعني البحث الدقّيق عن احوال الموارنة واديانهم وكتبهم وطقوسهم وتصرّفهم في توزيع الاسرار فقضيا في تلك المهمّة اثني عشر يوماً . لكنهما رأيا بعد قليل انّ ذلك الفحص يحتاج الى معلومات لا يمكن الحصول عليها الّا بعد بضعة اسابيع فاضطرّا الى ان ينتظراها ريثما تتهيّأ ليواصل المرسلان عملهما

فاحبّ الاب اليانو ورفيقاه الاب راجيو والاخ اماتو ان يقدّسوا تلك الفسحة بزيارة الاراضي المقدّسة ليستمطروا نعمة تعالى على مشروعهم وبعد اتّفاقهم مع غيطة البطريرك انجروا في اواخر تمّوز من طرابلس الى يافا . فكان وصولهم الى القدس الشريف في الليلة السفرة عن صباح اليوم العاشر من آب ١٥٧٨ فزاروا تلك الاماكن التي قدّسها ابن الله بحياته وموته بكل خشوع وتُقى وكان الاب يوحنّا احسنَ دليل لرفيقيه بعد مجيئه السابق الى اورشليم اذ كان يهوديّ النحلة

صرف الزوّار شهراً في تلك الرحلة القدسيّة ساعين طاقتهم في التبرّك بآثار السيد المسيح على الارض . ثمّ اقفلوا راجعين الى لبنان فرجع الاب يوحنّا باماشتا بحراً من يافا الى طرابلس امّا رفيقاه فعادا الى طرابلس برّاً بعد ان زارا نواحي الجليل واجتازا في دمشق . وكان في تاريخ مرورهما يسكن الفيحاء كاهن ماروني اسمهُ الخوري سابا ابن الشمّاس يوسف المعروف بابن حليب من قرية العاقورة كما اثبت ذلك حضرة المرسل اللبناني الخوري ابراهيم حرفوش في وصف بعض مخطوطات مار شليطا في المشرق سنة ١٩٠٣ (٦ : ١١٩)

امّا الاب يوحنّا اليانو فانّهُ كان وجد له شماساً عارفاً باللغات العربيّة والسريانيّة والايطالية فأنس به لورعه وتقاهُ لكنّهُ لم يذكر اسمهُ في رسائله . وعلى رأي المرحوم الاب انطون رباط انّهُ الحلبيّ المولد الماروني الطائفة المكرّم ابراهيم جرجس الذي انتظم بعد ذلك بقليل في سلك الرهبانيّة اليسوعيّة ومات شهيد الايمان

(١) راجع تاريخ الرهبانيّة اليسوعيّة للمؤرخ المدقّق الاب سكّيني : F. Sacchini : *Hist. Societatis Jesu*, pars 4 ª, l. VIII

في مصرَّع سنة ١٥٩٥ لكنَّنا لم نجد سنداً لهذا الزعم والمرجَّح عندنا انَّ الاب اليانو عرف الشاب ابرهيم جرجس سنة رحلته الى حلب في سفارته الثانية (١٥٨١). اما الشماس المذكور هنا فقد استصحبهُ الاب اليانو ليستعين بهِ في اشغالهِ وحلّ مشكلاتهِ المادّية واتقان اللغات الوطنيَّة وجعلهُ كاتباً لاسرارهِ ومدوّناً لملحوظاتهِ ووسيطاً لهُ في اشغالهِ مع الاهلين

فعند بلوغهما الى طرابلس اخذ الاب يوحنّا يستعلم عن احوال المدينة هل يمكن انشاء مدرسةٍ فيها لتهذيب الشبيبة المارونيَّة كما كان فكَّر في ذلك قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر. لكنَّهُ تأكَّد بعد قليل انَّ هذا المشروع لا يُستطاع اخراجهُ الى حيّز العمل لسوء احوال النصارى وقتئذٍ في مدن الساحل حيث كان اعداؤهم يسومونهم الخسف ولا يرعون لهم جانباً. فتحقَّق انَّ افضل مكان لتثقيف الاحداث من الموارنة وتعليمهم العلوم الاكليريكيَّة انَّما هو عاصمة العالم الكاثوليكي اي رومية

ثمَّ رأى الاب اليانو الوقت مناسباً لمواصلة عملهِ لدى السيّد البطريرك لكنَّهُ وجد الاوفق أنْ يبقى الاب توما راجيو في طرابلس فيتمّ هناك بأمور تجار الفرنج الروحيَّة ويدرس اخلاق الموارنة وخدمتهم وابقى معهُ الاخ اماتو. اما هو فعاد الى قنّوبين وبعد ايام قليلة تبعهُ رفيقهُ الشمّاس الذي سبق ذكرهُ

ثم اسرع القاصد الرسولي الى مباشرة العمل وابتدأ بفحص المخطوطات الطقسيَّة التي يتداولها الموارنة كالاناجيل وتفاسيرها والتراتيل وغيرها من الكتب الدينيَّة. فكان يطالع الكتب فرداً فرداً واذا وجد اشياء مخلَّة بخصوص المعتقدات او الرسوم والعادات المألوفة في الكنيسة نصَّ عليها وافرزها عن سواها ثمَّ كان يعرضها على السيّد البطريرك والاساقفة الذين عندهُ فيبيّن لهم وجوه الخلل ثمَّ يتَّفقون اما على اصلاح ما يمكن اصلاحهُ بابدال بعض صفحات من تلك المخطوطات واما بحرقها ان كانت كثيرة الاغلاط وهكذا حرقوا جانباً من الكتب بحضرة الاكليروس والشعب وانَّما صار ذلك برضى الجميع وهم لا يرغبون سوى موافقة رومية في ايمانهم

ولا نجهل انَّ بعض المستشرقين آخذوا الاب اليانو في حرق هذه التآليف مع فوائدها لدرس الآثار القديمة في الكنائس السريانية الَّا ان الرسل الرسولي كان

يؤثر الطاعة لمرؤوسه الحبر الاعظم الذي كان تقدّم اليه بذلك مع علمه بانّ تلك المصنّفات لو بقيت لأضحت عثرة في سبيل المؤمنين ثم تتوفر بالنسخ .

وقد ظنّ البعض انّ القاصد الرسولي قد اتلف بعض تلك المخطوطات دون ان يفهم معناها . وهي تهمة باطلة لأنّ الاب المذكور كان يعرف العربيّة حقّ المعرفة ويلمّ بالسريانيّة كما يظهر من تآليفه ومن رسائله التي سنوردها وهي شبيهة بمكتبات نصارى ذاك العهد ليست دونها بشيء . وقد صرّح الدويهي نفسهُ بذلك في تاريخهِ كما مرّ . وفي رسائل الاب اليانو الى الحبر الاعظم يذكر بعض تلك النصوص التي رآها مخالفة للمعتقد القويم مع ذكر الكتب وصفحاتها

على انّ الاب اليانو لا يحمل هذه الاغلاط على سوء نيّة بل على جهل النسّاخ او على دسائس بعض المبتدعين الذين كانوا اختاطوا بالموارنة فزرعوا الزؤان بالحنطة على مثال الرجل العدوّ الذي يذكرهُ الانجيل . وقد لحظ الطيب الذكر السيّد الدويهي هذه الدسائس حيث قال (ص ٤١٥) :

وكان بثّ البدعة بجبل لبنان امرًا في غاية السهولة . اوّلًا لأنّ اللغة واحدة ورتب اسرار البيعة عندنا وعند اليعاقبة ليست بمختلفة الّا يسيرًا . ثانيًا لأنّ الناحية طيّبة الهواء والعيش منّ قبيل لاهل الدنيا ومتسهل (ص ٤١٦) . للمستفرغين لخدمة الله والمتنسكين في الاديرة والجبال وثالثًا لأنّ المتولي حكمها كان بكرم المتنسكين جليسة واحدة ويأذن لهم في السكنى حيث شاؤوا . فلمّا انكشف ذلك وتبيّن عند العلماء ورؤساء الكهنة كثر السجس والانشقاق في البلاد وصار البعض يحتجّون لرأي الطيسة الواحدة وآخرون ينصرون لرأي الطيبتين . . .

فكفى بهذا دليلًا على وقوع التصحيف في بعض الكتب كما قال الاب يوحنّا اليانو وعلى اهتمام هذا الرجل الغيور بقلع ذاك الزوان قبل ان يخنق الزرع الجيّد

ولمّا أنهى الاب اليسوعي عمله في الدار البطريركيّة رأى من الواجب ان يطوف لبنان ويتفقّد كنائسهُ واديرتهُ ليستطلع ان يُطلع الحبر الروماني على كافّة شؤون الطائفة المارونيّة لتجعل رومية نظرها عليها وتُعنى بها مهما . قال الدويهي يصف اعمال القاصد الرسولي في انحاء الجبل بما حرفهُ وهو احسن جواب على من اتّهم الاب اليانو بغايات باطلة كان يبعد عنها مناط الثريّا (ص ٤٤٢) :

وعقيب انفاذ تلك الكتب استأذن جوان باطيشتا غبطة البطريرك في ان يطوف بلاد الموارنة ويفحص كتبهم وعوائدهم فسرّ بذلك البطرك ميخائيل وبعث معهُ رسالة بخط يده الى

الاساقفة ورؤساء الاديرة وسائر الشعب لكي يقابلوه بما يليق من الاكرام ويقدموا لهُ كل ما يطلبه من الكتب وامر اخاه الاسقف مركيس والقس جرجس بن يونان من ابلیخ ان يسيرا في صحبته واستمرَّ نحو سنة يطوف الاديرة والكنائس ويطّلع على الرتب والكتب وكان معهُ ثلاثة دفاتر يقيّد في الاول ما يراه من الاغلاط ويرقم في الثاني ما ينبغي اشارة البابا فيه وفي الثالث يكتب ما يلتزم الكهنة والعوام تحفُّظهُ . . . وكان البطرك ميخائيل اخاه يحبُّ جوان باطيشتا محبة شديدة لاجل غيرته وطول اناته

فاستغرقت تلك الزيارة الرسوليَّة اشهرًا لم يدع فيها الاب اليانيصغيرة او كبيرة من احوال الطائفة المارونيَّة ألَّا عرفها ثمَّ عاد الى قنُّوبين وشكر السيِّد البطريرك على ما ابداهُ من العناية تسهيلًا لاقيام بوظيفته . ثمَّ عرض على غبطته وعلى رؤساء الطائفة ان يوقعوا بامضائهم قبولهم باوامر البابا بخصوص الامور التي ذكرها تداستهُ في براءته ففعلوا . وهـذا تقريرهم نقلًا عن نسخة مصونة في سجلَّات رهبانيَّتنا :

تذكرة في ما أرسل لنا قصَّاد سيِّدنا البابا الذين حضروا عند حقارتنا في شهر حزيران سنة ١٥٧٨ للتجسد الالهي ونحن نكون حافظين ذلك بغير تهاون بمعونة الله :

اوَّلًا ان يعمّدوا عند ثمانية ايام من ميلادهم وبالضرورة قبل ثمانية ايام ولا يؤخّروا العاد الى بعد الاربعين كحسب عادتهم القديمة

ثانيًا تثبيت الايمان بالميرون بعد ثمانية ام عشر سنين برشمة البطرك ام الاسقف لا غير في جبهته فقط ولا يكون رشمه في اللَّبات مثل عادتهم القديمة في المعمودية على يد قس

ثالثًا تكريس الميرون المقدس يكون على يد البطرك ام الاسقف ويكون ذلك في يوم الخميس الكبير وتركيبه من زيت زيتون نقي وبلسم لا غير ويجددوه في كل سنة وايش ما فضل من الدهن يُحرق

رابعًا لا يعطوا الاطفال القربان عند العاد كعادتهم القديمة لكن يعطوا القربان اذا كمل سنتهم ويعترفون لمعلم (اي معلم الذمَّة وهو الكاهن) قبل اخذه

خامسًا عند التقديسات تقال : قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت ارحمنا ولا يزيدون عليها شيئًا ولا يقولون : يا من صُلب ولا قام ولا صعد ولا غيره

سادسًا الاكليروس اعني البطرك او المطران والاسقف والخوري والقس والشماس والشمامسة يلزمهم السبع صلوات كل يوم

سابعًا ومن وجد امرأته في زنا لا يطلّقها ويأخذ غيرها ولا المرأة تأخذ غيره كعادتهم القديمة بل يفترقون الواحد عن الآخر في مجامعة الفراش وان ندمت المرأة وتابت يقدرون

يرجعون كما الاول . وفي غير ذلك نكون مستمدين مريضين على تكميل الاوامر والله تعالى يبينا ويساعدنا على تكميل ما رسم الاب اقدس البابا غريغوريوس الثالث عشر والآتين بعده خلفاً بعد خلف كاولاد الطاعة الطائعين لآبائهم وهذا خط بيدي انا الحقير مع المجتمعين مني

انا الحقير البطريرك بطرس في دير قنوبين بطرك الموارنة انا اصدق واثبت جميع ما امر السيد البابا بمثل ما ذكرنا اعلاه

انا الحقير مطران سركيس انا الحقير اسقف جرجس انا الحقير خوري يوحنا

انا الحقير خوري موسى

وكان الوازر الرسولي في اوقات الفراغ يشتغل بتعريب صورة رتبة الميرون وقوانين المجمع التريدنتيني والتعليم الصغير الذي صنّفهُ الطوبوي بطرس كانيزيوس اليسوعي وكتاب المرشد المسيحي للاب لدسما وكتاب الاعتراف والمناولة للاب لويس الغرناطي وصلوات اخرى جزيلة الفائدة

ثمَّ جعل يفكر في جلب الاساقفة والرهبان العُصاة الى الخضوع للسيد البطريرك فلم يرَ طريقاً لذلك اقرب من عقد مجمع ملّي تُعرض فيهِ كل المشاكل لتنظيم احوال الطائفة نظرياً وعملياً فأقنع بذلك البطريرك ميخائيل وابتدأ يُعدّ الموادّ التي يُقتضى التباحث فيها في ذاك المجمع

وكان مع ذلك لا يزال الاب الياتو يكاتب الكردينال كرافّا ورئيسهُ العام الاب مركوريان ويعلمهما بنتيجة اعمال السفارة . ومن جملة ما ارسلهُ مكاتيب من غبطة البطريرك الى الحبر الاعظم والى الكردينال كرافّا ارسلها في نقلها العربي مع ترجمتها فسرَّ قداسة البابا بتلك المعلومات وارسل يثني على همّة قاصده

وبينما كان الابوان الياتو وواجيه يفرغان المجهود في تحقيق نيّات رئيس الكنيسة اذ فشا الطاعون في سواحل الشام فما لبث ان انتشر انتشاراً عظيماً فبقي المرسلان في ريب عمّا يجب عليهما فعلهُ أيعودان الى رومية فيبلّغان شفاهيًّا الحبر الاعظم ما جرى لهما ام يواصلان عملهما رغماً عن الوباء . وكان السيد البطريرك يحضُّهما على الرجوع لاوربّة لئلّا تصيبهما العدوى فتضيع فائدة رسالتهما . لكنهما لم يريدا ان يسرعا قبل ورود اوامر من رومية في ذلك . وهذا ما جرى فان رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة العام الاب مركوريان ارسل اليهما الامر ليعودا الى رومية (لهُ بقيّة)